موقفنا من الفلسفة

١ — توطئة عامة

كان من نتائج سياسة الخلفاء في العصر العباسي الأول ان تشوق العلماء الى الاطلاع على العلوم الفلسفية ، فأوفد المأمون الرسل الى بلاد الروم لاستخراج علوم اليونانيين ، ثم حمل المترجمين على نقلها الى اللغة العربية . فنقلوا كتب (افلاطون) و (أرسطو) و (تيوفراست) و (جالينوس) و (وفيثاغوروس) و (فرنوريوس) وشروح (الاسكندر الافروديس) و (تيمستيوس) (وامونيوس) وبعض كتب افلوطين وغيرهما ، كما نقلوا أيضاً بعض الكتب السريانية والفارسية والهندية .

ولم يمض على نقل العلوم الفلسفية الى اللغة العربية الا القليل حتى عكف العرب على شرح معانيها والنسج على منوالها ، فأبدعوا لأنفسهم فلسفة خاصة مشبعة بعقائدهم الدينية ، وميولهم الاجتماعية والسياسية ، ثم نقلت هذه الفلسفة الى الغرب ، وسيطرت على التفكير الأوروبي حتى نهاية القرن الخامس عشر .

إلا ان الدولة العربية لما غلبت على أمرها ، وتسلط عليها الأتراك والبرابرة ، ركدت بها ريح العمران ، واضمحلت منها حرية الفكر ، واتهم الفلاسفة في صدق ايمانهم ، وصحة عقيدتهم ، وحاربتهم الخاصة والعامة . فالغزالي هدم فلسفة ابن سينا ، واتهم صاحبها بالكفر والزندقة ، وابن رشد نكب في المغرب ، واحرقت كتبه ، حتى قال الحاج ابو الحسين بن جبير فيه ، وفي نكبته :

نفذ القضاء بأخذ كل مموه   متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة   ان البلاء موكل بالمنطق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وابن خلدون نفسه كتب فصلاً هاماً في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها . وما زال العلماء والمحدثون ينتقدون الفلاسفة، حتى صارت كلمة فلسفة مرادفة في أذهان العامة للثرثرة والتمويه والالحاد، والفيلسوف عندهم هو الرجل الذي يلوك الكلام ويأتي بالأفكار الشاذة، ويعرض نفسه للهزء والسخرية . ولم تسترد الفلسفة بعض ما فقدته من الرواج والانتشار الا في أيامنا الأخيرة، إذ عكف المترجمون على نقل كتبها من اللغات الاوروبية الحديثة، وأخذ الكتاب والعلماء والمثقفون يعنون بها عنايتهم بفروع العلوم الأخرى . وكان من نتائج ذلك ان اتسعت الحركة الفلسفية في العالم العربي الحديث، وأقبلت الصحف والمجلات على نشر المقالات الفلسفية، ومال القراء الى مطالعة ما يفهمونه، وما لا يفهمونه منها . فمن قائل بضرورة الرجوع الى الفلسفة العربية القديمة لاحياء آثارها، واظهار معالمها، ومن قائل بضرورة الأخذ بالفلسفة الغربية الحديثة كما هي، دون أي تبديل او تغيير، ونريد الآن ان نحدد موقفنا ازاء كل من هذين الرأيين .

٢ — موقفنا من الفلسفة العربية

ما هو موقفنا إزاء الفلسفة العربية القديمة، هل ينبغي لنا الأخذ بها كما هي، أم يجب الاعراض عنها، والاتجاه نحو الفلسفة الغربية الحديثة ؟

لا شك ان الاعراض عن الفلسفة العربية القديمة ليس في مكنتنا، لأن هذه الفلسفة قد نفذت الى نفوسنا، وبدلت أفكارنا وعواطفنا . وهي فلسفة عقلية، وتوحيدية، وروحانية معاً، من مبادئها الأساسية ان الحقيقة الدينية لا تختلف عن الحقيقة الفلسفية، وان الحكمة هي صاحبة الشريعة، واختها الرضيعة . ومن نظر في آراء حكماء العرب، من الفارابي الى ابن سينا، ومن ابن سينا الى ابن رشد، علم ان التوفيق بين الحكمة والشريعة كان همهم الأول، حتى ان المتأخرين من علمائنا كالأستاذ الامام محمد عبده لم يخرجوا عن هذا المبدأ في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تفسير آيات القرآن الكريم . وجميع ما جاء في الشريعة عندهم متفق مع ما يكشف عنه النظر العقلي . فالمنقول مطابق للمعقول ولا فرق بين حقيقة وأخرى .

ولا شك ايضاً في ان الأخذ بالفلسفة العربية بأصبارها لا يتفق ومبادئ العلم الحديث . ففي الفلسفة العربية امور كثيرة لا تصلح لتوجيه تفكيرنا ولا لتنظيم حياتنا الحاضرة .

ان نظرية الفيض التي وضعها فلاسفة العرب للتوفيق بين الدين والفلسفة تستند الى اعتقادهم ان الارض هي مركز العالم ، وان الأفلاك طبقات مختلفة تحيط بالارض كما تحيط القشرة بالبيضة . ثم ان نظرية النفس ، ونظرية العقل ، ونظرية الطبيعة ، مشتملة جميعها على آراء لا يؤيدها العلم الصحيح .

لذلك كله كان من العبث الأخذ بالفلسفة العربية القديمة بأصبارها ، ان هذه الفلسفة يجب أن تدرس كما تدرس سائر الاتجاهات الفكرية القديمة لا للإفادة منها في توجيه سلوكنا ، ولكن لاستكمال ثقافتنا الفكرية ، واطلاعنا على ماضينا وتعريفنا بأنفسنا ، وتوضيح تطور أفكارنا ، فاذا شئنا ان تكون لنا فلسفة عربية حديثة تأتلف وميولنا ، وحاجاتنا الحاضرة ، وجب علينا اولاً دراسة الفلسفة العربية دراسة تاريخية لتأمين الاتصال بين اتجاهاتنا الفكرية الحديثة وعبقريتنا القديمة .

ان الحاضر كما قال (ليبنيز) مثقل بالماضي وممتلئ من المستقبل ، والأمم التي ليس لها ماض ليس لها شخصية كاملة . ومن أعرض عن دراسة الماضي حرم الاطلاع على أجمل آثار الفكر التي خلفها الاجداد .

على ان هذا الالتفات الى الماضي يجب ان يكون دافعاً الى الحركة والتقدم ، لا باعثاً على الركود . ان كثيرين من الشيوخ الذين يعيشون في الماضي يعجزون عن تفهم الحاضر ومسايرة تطوره . ان اعجابهم بماضيهم يلهيهم عن الاهتمام بالحاضر ويحول بينهم وبين التطلع الى المستقبل .

فموقفنا من الفلسفة العربية القديمة يجب ان يكون اذن موقفاً علمياً محضاً ، ونعني بهذا الموقف العلمي أن تاريخ الأفكار يجب أن يطلب لذاته ، لا لعبره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفوائده ، ومتى طلب التاريخ لذاته انكشف هو نفسه عن كثير من المسائل التي توحي الينا بالأفكار والآراء الجديدة .

هناك أمران يحددان لنا هذا الموقف العلمي : الأول هو التعريف بالفلسفة العربية ، والثاني هو نقدها وتحليلها .

١ — فالعرب لا يزالون حتى الآن جاهلين بكثير من مسائل الفلسفة العربية . وربما كان بعض المستشرقين أحسن احاطة بهذه المسائل من بعض علمائنا المعاصرين . أما فلسفة الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، فلا تزال محاطة بكثير من الغموض ، كما ان فلسفة علماء الكلام من المعتزلة وغيرهم لا تزال قليلة الوضوح . والسبب في ذلك يرجع الى ان كثيراً من الكتب الفلسفية القديمة لم يصل الينا ، حتى اصبحنا لا نعرف منها الا اسماءها كما ان كثيراً من المخطوطات لا تزال محفوظة في خزائن الكتب الخاصة لم يطلع عليها الا القليل من الناس ، وفي اللغة اللاتينية وغيرها تراجم لبعض الكتب العربية المفقودة . فهل من مصلحتنا ان تبقى هذه الكتب مخزونة في الصناديق في وقت نحن أحوج الأمم فيه الى التعريف بماضينا . ان أول عمل علمي يجب علينا القيام به هو احصاء المخطوطات الفلسفية العربية في البلدان الشرقية والغربية ، وتحقيقها ونشرها ، ثم اعادة طبع الكتب الفلسفية المنشورة سابقاً ، لاشتمالها على كثير من الأغلاط ، فبعضها لم يطبع حتى الآن الا على الحجر ، وبعضها الآخر طبع للتجارة لا للعلم والتحقيق ، وبديهي ان احياء النصوص الفلسفية يجب ان يشمل أيضاً كتب العقائد والتصوف . ففي كتب العقائد كثير من الفلسفة ، كما ان في كتب الأخلاق والتصوف نزعات فلسفية أصلية لا ينبغي اهمالها .

٢ — والأمر الثاني الذي يحدد لنا هذا الموقف العلمي هو وضع دراسات تحليلية عن فلاسفة العرب تشرح فيها فلسفتهم وتبين منابعها وأصولها ومدى تأثيرها في الحضارتين الشرقية والغربية . ان هذه الدراسات التحليلية هي الوسيلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأكيدة لتعريف العرب بحضارة العرب . وكما يتقدم التحليل على التركيب في ارتقاء العلوم الوضعية فكذلك يجب ان تتقدم الدراسات التحليلية الخاصة في تاريخ الفكر على النظرات التركيبية العامة . ان مؤرخي الأفكار الذين ينصرفون الى التركيب قبل التحليل يشبهون الروائيين الذين يؤلفون الوقائع الخيالية من مواد أولية وهمية . فقد يبعدهم هذا البناء الوهمي عن معرفة الحقائق ، وقد يقلب التاريخ الى اسطورة كاذبة ، وفي تاريخ العلوم آيات ناطقة تدل على ان العلماء لا يصلون الى المرحلة الوضعية الا بعد عكوفهم على تحليل العناصر ، واعراضهم عن حل المسائل الكبرى حلاً تركيبياً سريعاً . فالرياضي ، والفلكي ، والفيزيائي والكيميائي ، وعلماء الحياة والنفس والتاريخ يحددون في مرحلة التحليل دائرة بحثهم ، وينصرف كل منهم الى موضوع خاص ، او الى ناحية واحدة من موضوع خاص . ثم اذا تم لهم هذا التحليل انتقلوا منه الى مرحلة التركيب ، وكشفوا عن الخطط العامة المشتملة على تعليل العناصر وتوضيحها . لذلك كان من الصعب جداً على الباحثين في تاريخ الفلسفة العربية وضع تاريخ جامع لتطور الفكر العربي قبل القيام بدراسة النصوص ، وتحليل الآراء ، وتحديد الاتجاهات الفكرية الخاصة . وأنّى لنا ان نضع هذا التاريخ الجامع اذا نحن لم نحلل المذاهب الفلسفية المختلفة ، ولم نكشف عن الاتجاهات الفكرية المتباينة ، ولم نؤلف منها خططاً عامة تقرب الأفكار المتشابهة بعضها من بعض ، وتجمعها في تيار واحد .

وقصارى القول ان موقفنا من الفلسفة العربية القديمة يجب ان يكون موقفاً علمياً وضعياً غايته التعريف بها ونقدها وتحليلها ، لا الأخذ بأصبارها ، والنسج على منوالها . فان لكل زمان فلسفة موافقة لبنيته الاجتماعية وحالته العلمية وتطوره الفكري . ومن أراد ان يكون له في القرن العشرين فلسفة القرون الوسطى كان كمن يمشي الى الامام مشية القهقرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣ – موقفنا من الفلسفة الغربية

ان هذه الاشارات كافية لتحديد موقفنا من الفلسفة الغربية . فكما ان احياء الفلسفة العربية القديمة لا يكفي لبعث الفلسفة في ربوعنا ، فكذلك الأخذ بالفلسفة الغربية كما هي لا يكفي لتوجيه سلوكنا في مجتمعنا الحديث ، المتردد بين روحانية العقل ومادية العلم . فلا بد لنا ها هنا أيضاً من اتباع الطريق الذي سلكناه في تحديد موقفنا من الفلسفة العربية وهو : التعريف بهذه الفلسفة أولاً ، ثم نقدها وتحليلها .

١ – ينبغي لنا أولاً ترجمة امهات الكتب من الفلسفة اليونانية القديمة كفلسفة افلاطون وأرسطو وغيرها . ان الكتب العربية القديمة المترجمة عن اليونانية كثيرة الابهام والتعقيد ، لا يتوصل القارئ الى ما فيها من المعاني العميقة الا بعد قراءتها عدة مرات . فقد حكي عن الفارابي انه قرأ كتاب النفس لارسطو مائتي مرة ، وذكر ابن سينا عن نفسه انه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو اربعين مرة من غير ان يفهم ما فيه . ومن نظر في كتاب (فاطيغورياس) الذي ترجمه حنين بن اسحق وجد فيه من الغموض وركاكة الاسلوب ما يدعوه الى قراءته عشرات المرات . فلا بد لنا اذن من إعادة ترجمة هذه الكتب من لغتها الأصلية باسلوب عربي واضح ، ان الكتاب المعاصرين الذين ترجموا بعض كتب ارسطو وافلاطون عن الفرنسية او الانكليزية ضلوا سواء السبيل ، وليس في تجديد هذه التراجم كلها مضيعة للوقت ، اذ ان اكثرها قد فقد ، والموجود منها يكتنفه الغموض . ومن تذكر ان التفكير الأوروبي في اواخر القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر قد استند الى الفلسفة اليونانية في نهضته الحديثة أدرك ما لتعريب كتب افلاطون وارسطو من عميق الأثر في احياء فلسفتنا العربية القديمة من جهة ، وفي تفهم الفلسفة الغربية من جهة اخرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالفلسفة اليونانية لا تزال حتى اليوم معجزة المعجزات ، تجد فيها أصولاً لجميع المذاهب الحديثة من (ليبنيتز) الى (نيتشه) ومن (ديكارت) الى (كانت) . ومن أراد ان يكون له في ميدان الفلسفة أقل اثر فما عليه أولاً الا ان يرتوي من معين الفلسفة اليونانية .

٢ — وينبغي لنا ثانياً ان نترجم أمهات الكتب من الفلسفة الغربية الحديثة ككتب (لوك) و (ديكارت) و (ليبنيتز) ، و (اسبينوزا) و (هيوم) و (كانت) و (سبنسر) و (هيجل) و (شوبنهاور) و (اغوست كونت) و (نيتشه) و (برغسون) وغيرهم . ان هذه الترجمة ضرورية لنا اليوم اكثر من الدراسات التحليلية المقصورة على التعريف بالفلاسفة الغربيين . ومن قرأ هذه الدراسات عرف انها لا تطلعه على افكار الفلاسفة الا من وراء حجاب . واذا فهم ما كتبه اصحابها لم يجد في افكارهم ما يرفعه الى فضاء الفكر ويوحي اليه بالمعاني الجديدة . ومن شروط الترجمة ان تنقل الكتب من اللغة الأصلية التي كتبت فيها ، لأنها اذا نقلت عن لغة ثانية كان ذلك باعثاً على غموض الأفكار وتحريفها وبعدها عن الضبط . دع ان المترجمين لا يحسنون الاختيار فيترجمون ما يصل اليهم من الكتب على غير هدى من غير ان يكون لها قيمة حقيقية . مثال ذلك ان بعض قراء العربية كانوا الى عهد قريب يعدون (غوستاف لوبون) اعظم فلاسفة الغرب . والسبب في ظنهم هذا يرجع الى ان بعض الأساتذة نقل كتبه الى اللغة العربية . لا شك ان (غوستاف لوبون) شارك في علوم كثيرة ، الا انه لم يتعمق في علم من العلوم تعمق رجال الاختصاص ، فهو قد كتب في علم الاجتماع ، ولكنه ليس عالماً اجتماعياً كدوركهايم ولفي بروهل ، وهو قد كتب في علم الفيزياء ولكنه ليس عالماً فيزيائياً كجان برن وطوسون وأنيشتاين ، وكتب في التربية والأخلاق ولكنه لم يبلغ في ذلك ما بلغه جيمس وديوي ، وبينه ، وبرغسون من بعد النظر ودقة الفكر . فمن الضروري اذن وضع برنامج واسع لترجمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكتب ، تتولى اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية الاشراف عليه ، ثم توزع العمل على الاختصاصيين في مختلف الدول العربية لتنفيذه وانجازه .

٣ — وقد يقال ان في العالم الغربي انواعاً من الفلسفة لا تأتلف وعبقرية الأمة العربية ، وان نقل هذه المذاهب الى لغتنا قد يؤدي الى استهواء الكثير من الناس ، وادخال الفوضى على العقائد الموروثة . فنقول رداً على ذلك ان نقل المذاهب المختلفة لا يودي بالضرورة الى الأخذ بها . ففي الفلسفة الاوروبية مذاهب روحانية ومذاهب مادية كما ان فيها مذاهب خيالية ومذاهب وجودية ، وهي تتهافت ، ويهدم بعضها بعضاً كما تتساند وتتعاون . فاذا ترجمت كلها معاً استطاع القارئ العربي ان يقارن بينها وان ينقدها ويحللها ويكون لنفسه بعد ذلك رأياً شخصياً فيها . وربما كان لنقل هذه المذاهب المختلفة اثر عميق في تربية حرية الفكر . لقد تعود مفكرونا ان يقيدوا آراءهم الفلسفية بالعقائد الموروثة والتقاليد الاجتماعية المعروفة . واذا خرجوا عن هذه التقاليد أثاروا حولهم موجة من السخط والاستنكار . إن الابداع الفلسفي شبيه بالابداع الفني ، لا ينمو الا حيث تنمو حرية الفكر . ومتى خضع للقيود الاجتماعية والسياسية انقلب الى تقليد محض . أضف الى ذلك ان الفلسفة الغربية ليست مضادة لعبقريتنا ، فهي قد تولدت من الفلسفة اليونانية كفلسفتنا القديمة ، وكان للفلسفة العربية نفسها أثر عميق في نشأتها . ان القديس (توما الاكويني) و (غيوم دوفرني) و (روجه باكون) قد أخذوا كثيراً عن ابن سينا وابن رشد ، حتى ان اعجاب (غيوم دوفرني) بهما كان لا يقل عن اعجابه بأرسطو . فليس بيننا وبين الغربيين في هذه الناحية الا فرق واحد ، وهو ان الفلسفة قد اضمحلت من العالم العربي الا قليلاً من رسومها نجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء الدين ، اما الغرب فقد عرف الفلسفة اليونانية أولاً عن طريق الفلسفة العربية ، ثم عرفها بعد ذلك مباشرة ، وبقيت الفلسفة عند الغربيين نافقة الأسواق متجددة الرسوم حتى وصلت الى ما هي عليه

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الآن من الابداع . فليس في الفلسفة الاوروبية اذن ما يخالف عبقرية الشعب العربي وميوله ، بل ان تكامل الفكر العربي الحديث يقتضي اقتباس الفلسفة الاوروبية وربطها بالأصول اليونانية القديمة . ومتى تم لنا هذا الاقتباس استطعنا ان نجدد تفكيرنا وأن نبدع لأنفسنا فلسفة عربية حديثة .

وجملة القول ينبغي ان يكون موقفنا من الفلسفة الغربية كما كان موقف اجدادنا من الفلسفة اليونانية . وهو موقف ايجابي يدعو الى ترجمة الفلسفة الغربية والأخذ بكثير من مسائلها ، ثم تأليف عناصرها في قوالب عربية مستوحاة من ماضي الأمة وحاضرها .

٤ — موقفنا من الفلسفة بصورة عامة

وها هنا اشارة لا بد من ذكرها في آخر هذا المقال . وهي انه ينبغي لنا في كل ذلك ان نتجنب التقليد المحض . ان مجلاتنا الشهرية طافحة بالمقالات الفلسفية ، كما ان دور النشر تصدر في كل شهر كتاباً فلسفياً موضوعاً أو مترجماً . الا ان هذه الزيادة في الانتاج لا تدل على ابداع حقيقي ، لأنها زيادة وهمية مبنية على التقليد . لقد أصبح البحث في المسائل الفلسفية عندنا زياً من الأزياء . وقلما وجدت كاتباً لم يكن له في هذا الباب باع طويل . وهذه الظاهرة تدل على ان القارئ العربي يرغب اليوم في مطالعة الموضوعات الفلسفية بالرغم من اضمحلال الفلسفة ، وزوال رسومها من ربوعنا . ولكن معالجة هذه المسائل لا تتعدى الآن طور التقليد الأعمى . اننا نقلد الغربيين في كل شيء ، نقلدهم في الأزياء كما نقلدهم في الأفكار والعواطف . نعم قد يكون التقليد ضرورياً في المراحل الأولى من الحياة الفكرية ، الا انه اذا طال أفقد الفكر روعته وابداعه ، فاذا شئنا ان تكون لنا فلسفة عربية حديثة دالة على عبقريتنا وجب علينا أولاً ان نتجنب التقليد الأعمى ، وان نسمو الى يفاع الاستبصار والابداع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذا لا يمنع من ان يكون في العالم العربي فلاسفة مقلدون يذهبون الى ما ذهب اليه ابن رشد في وحدة العقل أو يقولون بما قال به ابن خلدون من ابطال علم ما بعد الطبيعة ، أو يعتنقون مذهب (كانت) او (اغوست كونت) او (سبنسر) في المعرفة . الا انه ينبغي ان يوجد الى جنب هؤلاء التابعين فلاسفة آخرون مبدعون يقتبسون العناصر من هنا وهناك ويصوغونها في قوالب جديدة . والشرط اللازم لهذا الابداع هو في نظرنا فك الفلسفة من عقالها ، واطلاق حريتها ، وتجريدها من القيود التقليدية ، والضغط الاجتماعي . وليس في اطلاق حرية الفلسفة اي خطر على الدين ، لان الإيمان أقوى من أن يتصدع بمعاول العقل ، لا بل قد يكون في هفوات العقل تأييد له ورجوع اليه . وما الفلاسفة الا شعراء يصوغون مادة العلم في قوالب العقل ، كما ينسج الشعراء رموزاً ومجازات ورؤى وأحلاماً مقتبسة من الطبيعة . فاذا نظرنا الى الفلسفة هذه النظرة الفنية أمكننا أن نحلها دار الأمان ، وان نتغاضى عن المتفلسفين كما نتغاضى اليوم عن الشعراء .

جميل صليبا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net